دمية من شريان

رولا توفيق كوراني

رواية

ALROU la

الإهداء

لكل من ظنّ أن بإمكانه أن يمحو أثري:

أنا هنا رغمًا عنك.

المقدمة:

لم تكوني سوى امرأةٍ دفنتِ جثماني حيًّا،

جعلتِ مني شخصًا يرى كل الوجوه أنتِ..

حفرتِ داخلي قبرًا دفنتِ به كل ذكرياتي،

وتركتِ في قلبي ندبًا كلما كبرت ظهر أكثر.

لم تذهبي،

جعلتِني حبرًا وكتبتِ به مشاعر الخذلان

دهرًا.

ما كان هذا قلب امرأةٍ أحببتُها،

أنتِ العشيقة التي لم تترك لهذا القلب أثرًا.

جالسًا على ضفاف النهر.. يقذف أحجار اللوعة والحيرة،

يحاول فهم كيف لقلبٍ مغلقٍ أن تُقرع بداخله أجراس الحب، تاركةً كل الأوقات،

وكيف لعاصفةٍ أن تأتي وتلتف حول الجسد، تخطف الأنفاس والنظر،

وكيف لجسدٍ حلّت عليه لعنة اليابسة أن يخضرّ ويزهر من جديد؟

ماذا عساه أن يكون؟ سحرٌ أم جانٌّ أم عيون؟

يبدو أنه ليس سحرًا ولا جانًّا،

فكل العيون مرّت سواسية، إلا تلك العيون،

وماذا ستأخذ معها تلك العيون؟

سيُخبرنا نيكول ماذا فعلت به تلك العيون...

في طريقٍ طويلٍ بين أزقّة تلك البيوت القديمة،

على أصوات السكينة، ورائحة القهوة تفوح من مطاحن المدينة،

فوق أرضٍ حجريةٍ تبتسم للعابرين،

بين الظهر والعصر، على وجوه المارّين، وليالي السهر.

يمشي ببطء، ينظر إلى دوالي الياسمين، مغرمًا بها،

يرسم أحلام العمر ويُلوّنها بهدوء السَّحر.

خُطف قلبه من تلك العابرةِ السبيل،

التي مرّت من جانبه، وأخذت شيئًا ولم تُعده إليه.

يشعر بأن شيئًا باردًا يتسلّل بين عروقه الدافئة،

يُنعش أعصاب الجسد،

يرتعش كلما ضبط إحساسه بأن هناك شيئًا قد سُرق...

وماذا سُرق؟ ولماذا سُرق؟

انتظر نيكول ساعاتِ الليل الطويلة، التي يكسوها بردُ الشتاء القارس، على أن تمضي هذه الليلة، ويعود باحثًا عن شيءٍ قد سُرق منه في الليلة الماضية..

مضت تلك الليلة، وذهب إلى المكان ذاته، وانتظر:

ساعةً..

ساعتين..

ثلاثًا...

ولم تعد تلك الملاك..

دائمًا ما يُهلك المرءَ هو الانتظار.

وهذا ما فعل بنيكول،

ينتظر.. كل يوم.. في كل ساعة.

عجبًا.. أيسرق المرء، ولا يستطيع أن يعود كما كان؟

على مدار أسبوعين،

يقف نيكول مستندًا إلى حائطٍ حجري، ينظر إلى السماء، هالكًا لتلك لفافة التبغ التي ذابت بين أصابعه.

لتعود إليه رائحة العبير من جديد، ينظر بدقة،

ليجدها قادمة من ذات الطريق.

ما إن أصبحت أمامه حتى كاد أن يتوقف نبضه..

رمقته بنظرةٍ جذّابة، بابتسامةٍ خطفت كل ما فيه، وأكملت الطريق وكأنها لم تكن سارقة.

توقف نيكول لبرهة، ثم لحق بها عن بُعد، وأدرك أنها عائدة إلى منزلها.

استمرت تلك المواقف ما يقارب عدة أيام،

حتى جاء ذاك الوقت الذي ننتظره جميعًا..

وكالعادة، يقف نيكول بانتظارها ليراقبها من بعيد،

فرآها تنظر إليه، وتضع ورقةً بين أحجار الحائط القديمة.

وما إن غادرت،

حتى ركض نيكول سريعًا، وأخذ تلك الورقة، وعاد إلى منزله.

جلس على سريره، يفتح الورقة كمن يفتح قلبه في عمليةٍ جراحية،

ويبدأ قراءتها وهو يشمّ رائحة العبير التي تفوح منها:

"أدعى كاميلا.. وأنت؟"

لم تحتوي الرسالة سوى جملةٍ قصيرة،

لكنها كادت أن تحفر قبرًا لنيكول.

انتظر نيكول..

وفي اليوم التالي وقف ينتظر كاميلا،

وعندما لمح وجودها من بعيد، وقف بيده رسالته.

وما إن اقتربت، وضعها في أحجار الحائط،

اقتربت كاميلا، أخذت الرسالة، وذهبت إلى منزلها.

بضع ساعاتٍ جلس يفكر بالرد،

ثم بدأ بقلمه يخط حبًا عوض الحبر:

"أدعى نيكول.. يسرني أن أكون المنتظر لقدومك كل يوم،

لرؤيتك بضع ثوانٍ.

أريد أن أخبرك بأنك جميلة جدًا."

انتظر نيكول..

وفي اليوم التالي وقف ينتظر كاميلا،

وعندما لمح وجودها من بعيد، وقف بيده رسالته.

وما إن اقتربت، وضعها في أحجار الحائط، اقتربت كاميلا، أخذت تلك الرسالة، وذهبت إلى منزلها.

ومرت الأيام.. شهور..

ونيكول وكاميلا يتبادلان تلك الرسائل.

وبعد القليل من الوقت، قرر نيكول الاعتراف بإعجابه الشديد بها، وبأنه يحبها جدًا، فقرر أن يكتب لها رسالة ليستطيع إلقاءها.

جلس لساعاتٍ عدة يحاول،

كيف للمرء أن يكتب ارتعاش نبضه بحروف؟

لكنه حاول:

كاميلا..

لطالما جئتِ إلى حياتي وكأنكِ نيزك اخترق داخلي،

بعثرت نبض قلبي، وجعلتِني طفلاً ينتظرك دائمًا، متلهفًا كالشوق لأمه.

مغرم أنا بكِ كلّك،

بتلك المجرة التي تسكن عيناكِ،

برمش عينيكِ الذي يحملني كالرياح،

وبوجنتيكِ المنحدرتين.

مغرم أنا بكِ.. جدًا.

فإن استطعتِ أن تغرمي بي،

قابليني على ضفاف النهر بعد غد.

أريد لقياكِ، وما أنا إلا فقير بحبكِ يا ملاكي..

وكالمعتاد،

ذهب نيكول في اليوم التالي ينتظر قدوم ملاكه.

مرّ الوقت: ساعة.. ساعتان.. ثلاث.. أربع.

لم تأتِ كاميلا.

عاد إلى منزله، يجر أذيال الخيبات والحزن، لكنه لم يستسلم.

وعاد في اليوم التالي، ولم تأتي كاميلا.

بقي على هذا الحال،

ينتظر كل يوم.

لم يزره النوم، وأصبح كالمدمن الذي ينتظر حبة من داخل المصحة.

يذهب كل يوم وينتظر.

أكل الشحوب وجهه، واحتل التعب قلبه.

كيف لأمل أن يُزرع بداخله ثم يُسلب؟

أهي محتلّة؟ وقررت أن تحرره؟

فإن كانت محتلة.. فلتعد، فهو يعشق قيده.

كيف سيعود كما كان؟

ظل نيكول يبحث عن نفسه التي سلبت منه،

ضائعًا بين أزقّة المدينة،

يبحث عنها بين غيوم السماء،

بين الأحجار،

في الشوارع،

في الرسائل،

حائرًا كيف عليه أن يجدها.

يرسم أحلامًا وهو شارِد في أسقف منزله،

يمشي باستمرار باحثًا عنها حتى بيته،

يكتب أشعارًا لها،

متأملاً بظهورها يومًا ما.

حتى مضى وقت، وهو لا ينساها.

أي حب هذا، وأي قلب؟

على ضفاف النهر،

يقذف أحجارًا من جديد، يفكر بها،

يلعن كل لحظة جاء القدر بها إليه،

يشتت انتباهه لعله لا يجدها بين جريان النهر،

حتى سمع:

— نيكول؟

ظن أنه يسمعها لكثرة التفكير بها،

ومن جديد:

— نيكول؟

نظر إلى الخلف ليجد أنها كاميلا، تنظر إليه بعينين لامعتين وابتسامة تخطف من النهار جماله.

لتقل له:

ـــ أنتظرتك جدًا.

نهض نيكول، يحاول فهم ما إن كان ما يراه حقيقيًا:

ـــ أين كنتِ يا كاميلا؟

لترد عليه بصوت مبحوح يملؤه الحزن:

ـــ لقد وقعت إحدى رسائلك بيد أبي يا نيكول، لن تستطيع رؤيتي بعد الآن، فقد لا

أعلم كيف علي التواصل معك... وكيف سأراك مجددًا؟

صمت نيكول لبرهة، ثم كسر حاجز الصمت وقال:

ـــ كاميلا، أحبك جدًا.

لمعت عيناها وهي تنظر إليه، ثم زارتها ملامح الخجل:

ـــ وأنا كذلك.

ثم ركضت وابتعدت دون النظر إليه.

ظل نيكول حائرًا، كيف سيصل لها؟

مضت أيام على هذا الموقف ليجد الحل: أن يحفر ليمونة ويفرغ داخلها، ثم يضع تلك الرسالة ويحاول إغلاقها.

وفعلًا نجح الأمر، فمن لا يدقق بها لا يعلم أنها فارغة.

وضع رسالته داخلها:

— كاميلا، إن الشوق يكاد يقتلني، وإني موظف فقير، فكيف لي التقدم لكِ وأنتِ تعلمين أنني لا أستطيع؟

تحلي بالصبر، لعلي آتي إليكِ طالبًا وصالكِ يومًا.

وذهب ورمى ليمونته في حديقة منزل كاميلا.

وما إن شعرت كاميلا بسقوط طرف الليمونة،

خرجت إلى حديقة منزلها، وأمسكت بها، لتلحظ أنها فارغة، وأنها تخبئ رسالة من نيكول.

انتظر نيكول كثيرًا..

وبينما هو جالس في حديقة منزله يحتسي القهوة،

وجد رسالة مرمية من الخارج وعالقة بين أغصان الشجر.

صعد نيكول والتقطها، ثم جلس يقرأ:

— نيكول.. أنا كاميلا.

أدرك تمامًا خطورة الأمر، لكن حاول قدر المستطاع.

ستكون الليمونات عنوان حبنا المخفي إلى أن يؤون الآوان.

مرّت أشهر على تبادل رسائلهما،

وهم يتبادلان تلك الرسائل.

لكن نيكول لم يعد قادرًا على إخفاء الشوق في قلبه.

أخبرها في آخر رسالة أنه يود اللقاء بها عاجلًا غير آجل، في أي وقت ممكن.

انتظر الرد أيامًا،

وحين وصله، كان عبارة عن موعد في تاريخ وساعة معينة على ضفاف النهر.

جاء اليوم الموعود،

لم يكن كأي يوم.

فلم ينم نيكول تلك الليلة،

ارتدى ملابسه بحب، وبدأ يسرح شعره الجميل شعرة شعرة،

استحمّ بقارورة العطر، وانطلق.

يبدو أن الموعد الغرامي يعيد طاقة العاشق للمئة؟

وقف نيكول ينتظرها بفارغ الصبر.

حان الوقت... لكنها لم تأتِ بعد.

جلس ينتظر، وكأنه يجلس على موقد من نار، على أحرّ من الجمر.

مضى الوقت طويلًا،

حتى رأى أنها آتية، تركض من بعيد باتجاهه حتى وصلت.

وقفا ينظران إلى بعضهما، كل منهما غارق في عيون الآخر، محدقًا بكل ما فيه من قوة.

ع صائم، حان وقت أذانه،

كظمآن أكله العطش وأمامه الماء.

قاطعت كاميلا صمتهما:

ـــ لا أستطيع البقاء طويلاً...

عليّ أن أخبرك بأنني لا أستطيع الانتظار أكثر.

أنت تدرك جيدًا بأنني في سن الزواج، وبأنني لا أستطيع الخروج من المنزل.

أرجوك، لا تجعل هذا الحب يذهب سدى.

فأنا أحبك يا نيكول... أحبك جدًا.

وغادرت، تركض، وهي منهمرة بالبكاء، تمسح من على وجنتيها اللؤلؤ المتناثر من عينيها.

أصابت نيكول رعشة الخوف.

كيف له أن يتقدّم إليها وهو لا يستطيع أن يشتري حتى وردة؟ ماذا يفعل؟

هو يدرك أن والدته تملك بيوتًا للإيجار،

لكن جميعنا يعلم أنه ليس من الممكن أن تساعده حتى بقطعة نقدية واحدة.

كل ما نستطيع قوله...

إياك والتخلي يا نيكول.

في المجتمعات الشرقية...

يُظلم الحب وكأنه خطيئة،

ويُحرّم تحريمًا باتًا،

حتى وإن كان حلالًا،

ولا يُزوّج المحبوبين،

ويجعل كلًّا منهم يتزوج بآخر،

وكأن عقاب القلب هو الفراق،

فقط لأنه قرّر أن يدق.

أخبر نيكول والدته بأنه يود الذهاب لخطبة تلك الفتاة التي يهيم بها،

وأنه يطلب مساعدتها.

لكن، كما ذكرنا سابقًا،

أم نيكول، امرأة شرقية، لم تعِ حديثه أي انتباه.

وبعد ما يقارب الشهر،

حاول نيكول مع والدته مرة أخرى كي تذهب للتقدم بخطبة كاميلا.

وفعلًا، وافقت أمه بعد الكثير من العناء،
وتحت الكثير من الشروط.

ذهبت وتقدمت لتلك الفتاة،
وأخبرت نيكول بأنها تنتظر الرد.

انتظر نيكول كمن يضع قلبه على موقد نار،
وينتظر أن ينتطفئ.

"أطيل الانتظار، وأرى الساعات

تتآكل بين يديّ، كأن الزمن يعبث

بقلبي."

شعور بأن يجلس المرء على حافة الانتظار،

يحاول فهم كل ما يدور حوله،

يتألم للساعات، ويُذبح مع تقدم كل ثانية.

قيل:

"وإنـي أنتظرك على أحرّ من الجمر."

فكيف سيكون الاحتراق؟

بينما هو ينتظر، تمر كل دقيقة على قلبه كدهر بأكمله.

كانت أمه تتمنى منهم عدم الإجابة.

وأخيرًا، ها قد جاءت أمه لتخبره بما حدث.

جلست بجواره، تنظر إلى عينيه اللتين يملؤهما خوف عميق يتغلغل فيهما قلق مميت.

نظر إلى أمه كمن ينتظر، يخمن:

أتكون الكلمة طلقة تخترق صدره وتميته،

أم زهرة ستزهو حياته بعدها؟

أتكون انتصارًا أم خسارة فادحة؟

تنطق أمه قائلة بصوت يرتجف:

— نيكول، ليس كل ما نريد سيكون لنا.

لم يستطع استيعاب ما تقوله.

شعر وكأن الحياة توقفت عند تلك الكلمة.

دار الكون به معلنًا النهاية المطلقة، وكأنه عاد للصفر.

كيف سيصف المرء شعوره بالخذلان؟

كيف يستطيع أن يكبت نهرًا داخل عينيه؟

كيف يستطيع أن يمحو ما رسمه القدر داخل قلبه؟

قيل لنيكول من رجل خاض حروبًا في الحب:

— سيلزمك عمر إضافي لنسيان فتاة زرعت داخل قلبك،

غرست بين الشريان والوريد.

ستحتاج دهرًا كاملًا كي تستطيع نسيان عيونها وملامحها البريئة.

أتظن يا ولدي بأنك ستنجو؟

الحب فخ، وأنت وقعت فيه.

ومن قال لك بأنك ستستطيع التجاوز، كذب ونافق.

الحب يا ولدي، جرح سيؤلمك ما حييت.

يمضي العمر، وهناك من في الروح سكنت،

أتقضي السنين دون حفر كل ذكرى هي فيها؟

نسيت بعدها رفاهية السير في الحياة،

نسيت كيف يعيش الإنسان.

ربما كانت سببًا لتلك الأنفاس...

لم يكن ما حصل عاديًا،

فقد قال نيكول فيها:

— جعلتني أفتش عن عيونها في العابرين،

أسمع همس صوتها بين الضجة،

جعلتني شبحًا مرئيًا للناس، لكنني لا أرى أحدًا.

رسمت تحت عيوني شحوبًا يروي قصة حب حُكم عليها بالأغلال المؤبدة.

فقير هو كل من وقع في حب فتاة مثلكِ،

كان غناه الوحيد وأشياؤه الثمينة...

فقير كل من لم يجد مخرجًا للوصول إليكِ.

مضت تلك الأيام كجبال،

جلس على قلبه،

يتخبط بين جدران الحياة،

كمن لا حيلة له سوى الاحتراق.

ينتشل نفسه من بين الركام،

أيُّ روحٍ تلك التي يقاومها الزغب؟

ينفض من كتفيه ما راكمته رياحه من غبار،

ممتلئ بمدافعٍ تقذف الحب رغماً عنه،

فيعود مقذوف بالخذلان،

خاسر حربَ الحياة،

مبتور كل ما صنعه باحتراف،

فقط لأننه خالفت المعركة،

واستبدل نيرانَ العدوان بنارِ الشوق.

#رولا

يهرب إلى أين!!!

العالم ووسعه لا يتسع...

كيف لقلب بحجم قبضة اليد أن يضيق به كل مكان؟

كيف كذبت تلك العيون؟

كانت فراشة...

كيف أصبحت أفعى!

غريب هو كل من يدعي بالحب ويذهب،

وكأن كل ما شعر به كان مجرد متعة مؤقتة،

ثم يحذف كل شيء كأنه لم يكن.

تبًا لكل من استعار الحب ليستخدمه كثوب يغطي به خبثه ورداءة مشاعره.

ينظر إلى العالم بعين الشوق،

ذات الشوق الذي قذف به بعيدًا وأسقطه في النار.

سيكلفك هذا النسيان يومًا، أو لربما عامًا، ولربما عمرًا كاملاً.

ستحرقك كل ذكرى، كل نظرة، كل كلمة...

أنا لا أعوض، لا أكون خيارًا مؤجلًا، لا أكون بديلًا.

ستذكريني...

عند كل مطب، عند كل دمعة، عند كل حزن.

مخذول هو من سجيته الحنان،

مخذول كل من ظن أنك حقيقية.

الخسارة ستكون قلبي...

أما من ذهب، فسيعوضه آخر.

مضى في أيامه، وأكمل كل شيء،

لكن في كل مرة كان يبحث عنها:

بين صفحات كتابه، في الطريق، برائحة القهوة، بموسيقاه الكلاسيكية، بشعاع الشمس.

يبحث عنها كضائع،

يسير في سبيلٍ لا يعلم أين وجهته.

يظنها قد تخطّت،

وهو الذي يكافح كل يوم كي لا يراها في مخيلته.

كيف للمرء أن ينسف ذكراه، ويجعل منها رمادًا؟

كيف؟

تحدث أجدادنا كثيرًا عن الفقد،

وجميعهم اختصروا ذاك الشعور بجملة:

"كل الدنيا لا تتوقف عند فقدان أحد."

وفعلًا، عاد نيكول لعمله وأصدقائه،

ليكمل حياته دون كاميلا،

دون قلبه،

دون شعوره،

دون كل ما يجعل منه سببًا للعيش.

عاد... ولم يكن العود أحمدُ.

لم تُصغِ والدته له يومًا،

لم تسأله عن ضياعه، ولا عن تغيّره، ولا عن حزنه.

احتلّه الصمت،

وكأن كل العابرين رأوا كاميلا في عينيه.

لم يُنصت لأوجاعه،

لم يعد مكترثًا لنبضه المبعثر.

هو فقد...

ومن يفقد،

لا يعود كما كان.

التحق نيكول بخدمة العلم،

وغادر مدينته كلها...

خرج من كل ذكرى حُفرت بداخله،

ذهب ليلبّي نداء الوطن،

ذهب بجسده المنهك، وعينين ذابلتين.

يعود بين فترةٍ وأخرى ليطمئن على عائلته.

وبالرغم من اغترابه وخروجه من المدينة بأكملها،

كان يرى كاميلا حتى في المدينة الجديدة.

حدّث أمه عنها:

— لقد رأيتها بين موجات البحر،

رأيتها في البندقية،

رأيتها في تعبي وقلة حيلتي بعد كل تدريب أخضع له،

وفي الأمس جاءتني رائحتها بهيئة فراشات، بهيئة حب يعمّ المكان.

لكن أمه لم تكترث لأي كلمة،

كانت تنظر إليه كمن يستمع لقصة معتادة،

ظنًّا منها أنه سينسى يومًا ما.

لم أودّعك...

لم تكن هناك نظرة أخيرة،

ولا كلمة أخيرة،

ولا شعور أخير...

لكنني لن أنساك، أنتِ بداخلي.

طوت السنين...

هذا ما فعله نيكول بعد حروب وصراعات كان الخاسر فيها.

بدأ من جديد.

حين قرر الذهاب مع عائلته لزيارة أقربائه،

اجتمعت عيناه بعيني فتاةٍ كانت تنظر إليه بنظرات ناعمة،

وكأنه فتى أحلامها المنتظر.

حاول نيكول تشتيت انتباهه عنها،

ظنّ أنه في تهيؤ.

طفولتها تشبه طفولة كاميلا،

ورسمت ابتسامةً كأنها مسروقة من ثغر حبيبته كاميلا،

كأنها استعارت روحها...

اقتربت منه بخطواتٍ بطيئة جدًا، بنظرات واضحة،

وقف ثابتًا في مكانه، ينظر إليها بألف إشارة استفهام.

توقفت أمامه وقالت:

ـــ هل أستطيع طلب المساعدة؟

لم يتردد أبدًا في إجابتها:

ـــ بالتأكيد.

تلعثمت بكلامها، ثم أخبرته أنها لا تستطيع إصلاح سوارها، وطلبت منه ذلك.

وقف معها في ساحة الدار المغمورة بالورود،

وصوت الماء العذب يتدفق من نافورة الأرض.

أكمل إصلاح السوار،

وهي مسيطرة عليه بنظراتها، محتلة كل شعور يخرج منه.

أخذت سوارها وعادت إلى عائلتها.

جلس وحده يعيد الذاكرة:

ما كان هذا؟ ومن كانت تلك؟

حين عاد إلى منزله، أخبر أمه بكل ما حدث،

والمفاجأة أن أمه استقبلت الخبر بطريقة جميلة،

وأخبرته أن الفتاة ذات نسب، وأنها من الأقارب،

بل وعرضت عليه التقدم إليها.

وهنا... ضاقت الدنيا بنيكول.

أيختار مستقبلًا بعيدًا عن محبوبته؟

وكيف؟

لكن للأسف، لم تنتظر أم نيكول تفكيره،

بل ذهبت وتقدّمت لها أصلًا،

وتمت الخطبة والكتاب قبل مغادرته المدينة وانتهاء إجازته.

علمًا أن نيكول كان معروفًا بحسن خلقه،

محبوبًا من الجميع، طيب القلب إلى حدٍ مبالغ فيه.

كيف للمرء أن يأتي إلى مدينته بقلبٍ شاحبٍ منهك،

ويعود معقودًا بخاتمٍ من أنثى غير أنثاه؟

انتظرته الفتاة ما يقارب أربعة أعوام،

أحبّته بصدق،

وتعاونت معه لنسيان محبوبته بشتى الوسائل،

غمرته بحبها واهتمامها،

وصبرت على كل ضيق مرّ به.

كان يقول فيها:

— جميلة إلى حدٍ لا يُنسى،
كلما نظرتُ إليها ظننتها بدرًا مضيئًا،
دعجاء العينين، استعارت من الليل سواده،
ابتسامتها تشقّ الدرب وتفتح أبواب السلام،
كلما نظرت إليّ رفعت راية الاستسلام،
ذات وجنتين ورديتين، وثغرٍ توتيٍّ أحمر.

لكن، وبالرغم من جمالها الفتّان،
إلا أنه ما زال يعشق كاميلا جدًا،
ويراها في خطيبته دائمًا.

أهي خيانة؟

أم حب أعمى جعله لا يرى سوى محبوبته؟

مضت تلك الأيام،

وتزوّج نيكول بتلك الفتاة،

عاش معها بكل ودٍّ... لكنه

لم يحبّها.

ليأتي اليوم الذي توقّع أن يحدث...

عاد إلى منزله، ليجدها غارقة بدموعها،

تتنهد أنفاس العالم كله بزفيرٍ واحد.

اقترب منها ليسألها...

فانفجرت قائلة:

— لم أود يومًا أن أكون جسدًا لرجلٍ قلبه

مع غيري،

لم أرَ نفسي دمية.

أي قلبٍ هذا الذي تمتلكه أنت؟

ارحم قلبي... ارحم قلة حيلتي أمامك.

لم أكن يومًا قليلة،

بذلت كل ما بداخلي لأعوّضك عنها.

أقبح شعور يعيشه المرء،

أن يكون بديلًا لسدّ الفراغ داخل محبوبه.

لم يستطع أن يرد بحرفٍ واحد،

هو على إدراكٍ تام أن ما يفعله رغمًا عنه،

وخارج عن سيطرته،

رغم كل محاولاته ألّا يظهر لها ذلك.

لكننا نحن الإناث...

أحاسيسنا لا تخيب.

مضت السنين، وهو متزوج، لكنه غير سعيد،

خصوصًا أن الاختلاف بينه وبين زوجته

كان كبيرًا جدًا.

فهو رجل هادئ، يحب السكون، يميل إلى

الكلاسيك وكل ما هو قديم،

مرهف الحس، بسيط في كل شيء.

أما هي، فكانت فوضوية، كثيرة الحركة

والكلام،

ذات شخصية قوية، مسيطرة، ضحوكة جدًا،

وتميل إلى الفرح.

وهذا ما جعل التناقض بينهما كبيرًا.

أنجب منها أنثى وذكرًا،

وحين استقبل ابنته الأولى،

فوجئت زوجته بتسميتها باسم: "كاميلا".

وإليكم ما حدث...

كانت الطفلة بمثابة ردٍّ عدواني،

جعلت منها مثالًا مصغّرًا لحبيبة زوجها القديمة،

لذلك قامت بتعنيفها وضربها مرارًا،

وكأنها كانت الفداء.

مضى العمر سريعًا...

وكبر ابن نيكول، وأصبح شابًا،

مما دفع والديه لاتخاذ قرار زواجه القريب.

لم ينتظر أيٌّ منهم،

وتمت خطبته على فتاة،

ولم تدم الخطبة طويلًا،

فقد قرر الجميع الإقبال على تحضير الزفاف.

يمشي في شوارع المدينة،

ينظر إلى أحجار الأرض السوداء التي أخذت من عمرها سنين التعب،

مطأطئ الرأس، بطيء السير...

لتصدمه رائحة اعتاد عليها، لكنها ليست بجديدة.

رفع رأسه...

وهنا توقّف الزمن.

ذات العيون... ذات النظرة الجميلة... ذات الثغر والوجنتين،

لكنها... عجوز.

المحب لا يخطئ... لا يخطئ أبدًا.

فوجئ بسكونها، وتأكد أنها تبادله الشعور.

ما زال الهدوء قائمًا،

ليخترقه صوتها الناعم:

ـــ نيكول؟

صمت لبرهة... ثم قال:

ـــ كاميلا.

انهمرت بالبكاء،

تنظر إليه نظرة المشتاق، نظرة المحب لكل شيءٍ فيه.

ظمآنٌ هو المشتاق،

ولو شرب من أنهار العالم كلّها.

صمت نيكول، ثم نظر إلى الأرض،

فهو لم يعتد أن يراها بهذا الحال...

ثم قال:

— جعلتِني أمشي في أزقة المدينة كالمجنون،

كل من رآني قال: تبًا للغرام...

جعلتِ عيناي تفيض بالأنهار،

غادرتِ كغيمةٍ روت صحرائي... ثم ذهبتِ.

لم أودّعك...

كنتِ جرحًا انتظرت عمري كله ليلتئم... ولم يلتئم.

قاطعته كاميلا، وعلى وجهها دهشة ممزوجة بالانكسار:

ـــ أنت من غادر... انتظرتك، ولم تعد.

صمت نيكول...

ثم أخبرها أن أمه جاءت لطلبها، وأنها أخبرته برفضها.

وهنا كانت الصدمة.

انفجرت كاميلا قائلة:

ـــ كنت موافقة... كنت بانتظارك، لكن أمك لم تعد، وما قيل لك لم يكن صحيحًا.

توقف عمره عند تلك اللحظة.

أيُظلم المرء، وتنتهي حياته لأجل اختيارٍ لم يختره؟

كيف يخبر قلبه أن الظالم... كانت أمه؟

وكيف يتقبل الحقيقة... بعد فوات الأوان؟

أيخسر الإنسان قلبه...

ويعيش عمره بلا قلب؟

سقطت دموعه،

كنارٍ أحرقت كل ذكرى جمعتهما.

نظر إليها طويلًا...

تلك العيون التي عاش لأجلها،

ثم قال بصوتٍ مثقل:

— أنا متزوج... وابني على وشك الزواج، ولي ابنة... اسمها كاميلا.

لم تتردد، وقالت بهدوءٍ موجع:

— وأنا أيضًا... تزوجت، وأنجبت طفلين، ثم رحل زوجي... وسافر أولادي.

صمتٌ طويل جمعهما...

نظرت إليه بنظرة الطفلة التي أحبته منذ الصغر،

ثم قالت:

ـــ نيكول... ما رأيك أن نعود؟

أنا أحبك... وأريد أن أكمل ما تبقى من عمري بقربك.

تاه نيكول...

بين قلبٍ يصرخ، وعقلٍ يقيده.

كيف يخبرها أنه لم يتوقف عن حبها؟

كيف يقول لها إنها لم تغب يومًا؟

أنه كان يراها في الأزقة، في القهوة، في الصمت؟

كيف ينهي لحظة... انتظرها عمرًا؟

عاد... لكنه لم يعد كما كان.

رأت زوجته كل شيء،

في عينيه... في صمته... في حضنه لابنته.

وحين أخبرها بالحقيقة،

أغمضت عينيها،

وانهمرت دموعها بصمت،

ثم قالت:

— يمكنك الزواج بها... أريد أن أراك سعيدًا.

اقترب منها، واحتضنها بقوة، وقال:

— إن كانت قد أخذت قلبي يومًا...

فأنتِ ملكتِ عقلي،

ولا حكم للقلب دون العقل...

وأنا وهبتك عمري،

لأبقى بجوارك...

فأنتِ رفيقة الدرب... والروح.

...

الخاتمة

توفي نيكول عام ٢٠١٩،

وعلّمنا أن الحب...

ليس كل شيء،

وأن الحياة

تعطينا طرقًا أخرى،

وأننا نظل نبحث...

ليس عن حبٍ نقيد به أنفسنا،

بل عن روحٍ...

تشبهنا.

القصة حقيقية وليست من وحي الخيال